

بسم الله الرحمن الرحيم

بين وحدة الدين واختلاف الناس في المعتقدات

(الحلقة الأولى)

حوار مفتوح مع الجيل الجديد من الفتيان والفتيات حول الأديان



بقلم فضيلة الشيخ الدكتور الصديق عمر يعقوب

1- تبدو قضية الدين ومركزية الاعتقاد فيه هي قطب الدائرة في حياة الأمم والشعوب. وتثبت هذه الحقيقة برؤية تاريخية موضوعية محايدة، وهي ثابتة كذلك بقراءة لوحة خارطة أديان البشر بين أمم الأرض اليوم. لكن هناك اتجاهات ثقافية وفكرية وسياسية متآزرة يظاهر بعضها بعضا في سبيل التعمية على الناس في أمر الدين من خلال تشويه صورته ومحتواه بالاعتماد على عرضه إذا عرض في صور من التعارض والتناقض والدفع إلى الصراعات والحروب على طول مراحل التاريخ.

هذه الأوهام والشبه والملابسات والتلبيسات التي اصطنعها أقطاب الفكر المادي وروجوا لها بكل الوسائل لم تخضع بعد للمراجعة والتثبيت بصورة شمولية جادة؛ لأنها تعرض غالبا بعد أن تهيأ لقبولها أجواء اجتماعية وثقافية وسياسية مناسبة. وبتأثير مباشر من هذا التيار المادي وبخاصة بعد الصورة الباهتة المزرية التي رسمتها الكنيسة في عصر الغرب الوسيط عن الدين بهذا التأثير المباشر بدأت هوة واسعة سحيقة تتكون لتدفع بالناس بعيدا عن الدين. وما بقي من هذه العلاقة بالدين جاء في صورة هزلية هلامية باهتة غمرت فيها الحقيقة بالأسطورة، وأفرغ فيها الدين من محتواه، ووضعت الأديان كلها في سلة واحدة واعتبرت من تراث الماضي دون اعتبار لما يمكن أن يؤديه الدين من دور إصلاحي أو ريادي قيادي في حياة الناس وفي ضبط العلاقات بين الجماعات والمجتمعات، وهو دور أخلاقي عملي قد أخفقت كل المؤسسات في أدائه؛ لأن مرجعه منهج إلهي يحدد الأصول الضابطة للتوازن في حياة الأمم والشعوب ويترك لحركة العقل البشري مجالا حيويا واسعا يتحرك فيه مسترشدا بتلك الأصول.

ولليقين بهذه الحقيقة حول الدور المركزي للدين في الحياة البشرية يمكن الرجوع إلى قدر كبير من نصوص هذا السياق في الوثيقة القرآنية التي تضمنت خلاصة وحي الله إلى جميع الرسل عبر مراحل التاريخ في حياة البشر. وقد ينفر من هذه الإشارة الجوهرية إلى القرآن من ليس له سابق معرفة به أو من ليس له انتماء إلى منظومة دينية أو إلى فرقة أو مذهب يرفع شعار الدين والإيمان أو شعار الكفر والإلحاد، وينشر قائمة دورية بالمحرمات مما هو محظور القراءة على الأتباع. والمقدر هنا أن شباب العصر معينون بتحطيم هذه الأسوار وفك هذه القيود التي تحجر على العقول وتحاصر الأفكار.

إن الإنسان الذي يخضع لمثل هذا الحصار المعرفي باسم الحفاظ على بناء نظام ديني أو فكري ، هذا الإنسان يعلم بنفسه من نفسه أن موقفه هذا ليس من الدين ولا من العقل ولا من العلم في شيء. إن الحقيقة دائما هي ضالة الإنسان، وهو في بحث دائم عنها ليظفر بها.

2- لأمر ما لم يتأت للموسوعات التاريخية أن تدرج المسألة الدينية في أصول موضوعاتها، ومن ثم جاءت المادة المتصلة بالدين في هذه الموسوعات هامشية ينقصها التوثيق، ويعتمد في عرضها على التخرصات والمقاييس والعموميات والشغف بالجانب الأسطوري. أما ما اعتمد منها أحيانا على نصوص مما يعرف بالعهد القديم من كتب الكنيسة المقدسة، فإن هذه النصوص لم تسلم أمام النقد في دراسة التاريخ، ولعل في مصنف المؤرخ والفيلسوف اليهودي اسبينوزا في اللاهوت والسياسة ما يغني القارئ عن الرجوع إلى مصنفات غيره في هذا السياق. ومع كثرة الشكوك وقوتها حول هذه الأسفار ومنشئها ، فإن أقطاب الكنيسة قد أجمعوا أمرهم فارتأوا أن تكون هذه الأسفار التاريخية قاعدة للمعتقدات الكنسية بعد أن عمل فيها اللاهوتيون عملهم؛ حيث أخضعوها لأنماط غريبة من الرمزية والتأويل.

ولعل المؤرخين الغربيين الذين يلجأون إلى نصوص من مدونات العهد القديم إنما يفعلون ذلك ظنا منهم أن هذه النصوص تملأ بعض الفراغات في مدوناتهم فتعفيهم من دقة البحث والاستقصاء والتوثيق.

3- مما ينبغي التنبيه له والتنبيه إليه، ما يلاحظ من أن هناك جملة من المؤثرات قد حالت بين مدوني التاريخ العام وتاريخ الحضارة وتاريخ الأديان من كتاب الغرب وبين القرآن من حيث مضامينه التاريخية. ولعل من أظهر هذه المؤثرات الانتماء الثقافي ووهم مركزية الغرب وعقدة التميز العنصري إلى جانب الموقف الغربي العام من الإسلام. ويمكن القول بدون ريب إن تاريخ الدين في حياة البشر لم يكتب حتى الآن، وهو لن يكتب في غياب هذه الوثيقة الإلهية التاريخية في بعض مضامينها، وهي وثيقة ذات أهمية في السياق التاريخي لحياة البشر مع الدين أو للدين في حياة البشر. وتكمن أهمية هذه الوثيقة من هذا الجانب من حيث إنها تبين الكثير من الثغرات في هذا التاريخ الخاص وتتعبق الأخطاء والتجاوزات التي وقع فيها مدونو أسفار العهد القديم.

4- مغزى هذا الكلام في هذا السياق التاريخي الديني هو الإشارة إلى حقيقة دينية تاريخية مؤداها أن التدين فطرة فطر الله الناس عليها. وما أكثر الشواهد المرصودة على هذه الحقيقة التي قامت عليها وتكاملت معها حقيقة أخرى مفادها أن الدين الحق الذي هو جوهر الإيمان الحق بالله الواحد وحدانية مطلقة المتفرد بالوجود الأزلي الأبدي، هذا الدين بهذا المضمون الكلي الجامع هو دين واحد لا يتعدد. وهذا الدين الواحد الحق بجوهره وأصله وقاعدته ومرجعياته هو الدائرة المشتركة لرسالات كل الأنبياء. وهي رسالات إلهية حفل بها تاريخ البشرية، وكان لها آثار متتابعة أو متباعدة، الأثر الأول الفاعل في الدفع المباشر بهذه الحياة إلى غاياتها على نسق من سنن الله الكلية وأثارها العملية في الكون وفي حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات مع اعتبار أن الإرادة الإلهية في خلق الإنسان وفي جعله عنصرا مؤثرا في الحياة في هذا الكون سلبا أو إيجابا ، هذه الإرادة الإلهية الكلية قد تضمنت أن تكون لهذا الإنسان إرادة تتحرك إلى أحد اتجاهين متقابلين في المقدمات وفي النتائج: فهو بين أن يستجيب لمكنون فطرته فيسلك الطريق الذي سلكه موكب

الأنبياء، والسير في هذا الطريق مقتضيات ومسؤوليات وتبعات نبه إليها كل أنبياء الله، وبين أن ينتكر هذا الإنسان لنداء الفطرة فيقاومها قسرا ومعاندة فيسير في طريق أخرى تتفاوت في تعرجاتها والتواءاتها لكن نهايتها المشتركة هي التهلكة.

5- لا نحسب أن هذه الرؤية الاجتماعية الرسالية التاريخية الجامعة تستعصي على الإثبات مع اعتبار أن هناك رؤية أخرى تبدو في اتجاه معاكس تقرر ظهور أنبياء في التاريخ البشري جاء كل واحد منهم بدين. وما بقي من أديان هؤلاء الأنبياء الآن هو يهودية ومسيحية وإسلام وثلاثتها هي أديان التوحيد. وهذه الرؤية على الرغم مما تنطوي عليه من الملابسات والتجاوزات والمغالطات فإن لها الصدى الأكثر انتشارا في الخطاب الثقافي العالمي مع العلم بأن أدنى عرض وأبسط تحليل لهذه الرؤية العجلة أو المشبوهة يظهر تهافتها وعدم استقامتها.

6- إن الأديان في تاريخ البشر قديما وحديثا قد تعددت، لكن هذا التعدد في الأديان إنما هو من صنع الإنسان. أما الدين الصحيح الحق فهو دين واحد معتمده الوحي الإلهي ودعائه هم رسل الله وقاعدته التوحيد المطلق. وهذه العناصر الكلية هي العناصر الفارقة بين دين الله الحق الواحد وبين هذا الركام من الأديان والنحل والمعتقدات المنتشرة بين شعوب الأرض من عبدة البقر والشجر والبشر إلى عبدة النجوم والأوثان والشيطان.

إن الاختيار بين التدين والإلحاد منوط بإرادة الإنسان ، كذلك اختيار دين من بين هذه الأديان مرجعه إلى حرية الإنسان واختياره، وقبل هذا وبعده ينبغي أن يسعى الإنسان الرشيد إلى الحقيقة في أمر الدين ليصل في نهاية رحلته إلى الدين الحق. وإن القضية من الخطورة بمكان إذ يترتب عليها مصير كل إنسان.

7- قاعدة الدين الحق مرتكزا هو التصور الصحيح عن الله ذاتا وصفات بآثارها في الكون وفي الحياة. وبهذا الاعتبار فإن أية منظومة دينية كانت من قبل أو هي قائمة الآن أو قد تنشأ، كل هذه المنظومات يبطل منها بداهة كل منظومة تستبعد من أصولها جوهر الدين وهو الاعتقاد بوجود الله. ويمكن القول بناء على هذا إن جملة الأنظمة الفكرية و"الإيديولوجيات" السائدة الآن في شرق أو في غرب، إنما هي أنظمة فكرية وكفى، لا توفر للإنسان الذي يتصل بها البعد الديني الذي تمس حاجته إليه ولو كان دينا مصطنعا تأسس على جملة من الأساطير والطقوس المتوارثة. ويخرج عن دائرة الدين الحق كل معتقد لا يقيم للعقل وزنا ولا يعول عليه في عرض نصوصه وأصوله.

إن مضامين الدين الإلهي الحق أوسع دائرة، ومن آفاق هذه الدائرة ما هو أبعد من أن يحيط العقل البشري به علما، فتبقى أمام الإنسان فراغات معرفية. وفي هذه الحالة، يكون الوحي الإلهي إلى رسل الله هو وحده وسيلة المعرفة لملء هذه الفراغات، وهنا يبدو التكامل بين وسائل المعرفة: كل وسيلة تؤدي وظيفتها المنوطة بها دون تعارض أو تناقض أو تفكك. بهذا الركن أو بهذه القاعدة في تحديد الدين الحق من بين هذا الركام من أديان البشر، وهي قاعدة الوحي الإلهي تحقيقا وتوثيقا لا ادعاء، ينبغي أن يبعد من دائرة هذا الدين جملة من الأنظمة الدينية التي يقوم بناؤها على الموروث الأسطوري أو على الفكر البشري الخالص حتى لو نال كل هذا بمرور الزمن ضروبا من التقديس.

وبهذا الاعتبار، فإن حاخامات اليهود وأقطاب الكنائس شريقيها وغربيها، هؤلاء وأولئك معنيون قبل غيرهم بمراجعة أصول معتقداتهم على ضوء ما وصل إليه النقد الحديث في مجال دراسة الأديان تاريخا ونصوصا وأصولا بمسئلة التأثير والتأثر.

8- ليس في مضمون هذا البيان انتقاص لأهمية الفكر البشري ودوره في فهم الدين أو في عرض أصوله، إنما هي دعوة إلى أن يوضع هذا الفكر موضعه في دائرته التي يكتنفها الخطأ والصواب. لكن قاعدة الإيمان وفق أصول الدين الحق لا تحتل هذا التآرجح، إنها تستلزم اليقين

في الأصول والعصمة في النصوص مع التوجه إلى العقل البشري مدعوا إلى التأمل والتدبر والاستنتاج بطريقة منطقية منتجة لا تففز على النتائج قبل فحص المقدمات. وهذه المقتضيات لا تتحقق للدين إلا إذا اعتمد على الوحي الإلهي الموثق الذي هو مرجعية الدين الصحيح. ونتيجة هذا كله أن ركني الدين الحق هما: الوحي الإلهي المعصوم الثابت الموثق والعقل البشري الصريح المحايد.

9- هناك قاعدة ينبغي اعتبارها في تحديد ما هو حق ثابت وهو دين الله وبين ما هو لغو باطل من هذه المعتقدات والأديان السائدة اليوم، هذه القاعدة أو هذا الفيصل هو أفراد الله وحده بالعبادة. وهذا الفيصل هو العلاقة الفارقة بين التوحيد بكل ضوابطه وبين الشرك بكل صورته. إن المشرك له معتقد يعتبره ديناً، لكنه دين مصطنع باطل في مقابل الدين الحق الذي قاعدته التوحيد المطلق. والشرك بكل أنماطه وصوره ما ظهر منها قديماً وما استحدث الشرك بكل هذه الصور والأنماط هو كفر بالله؛ لأن المشرك مع إيمانه بالله قد أحدث في إيمانه لبسا وخلطاً حين زواج بين عبادة الله وعبادة غيره أياً كان هذا الغير المعبود وكيف كانت ذرائع هذا التوجه بالعبادة لغير الله. وهذه القاعدة لدين الله الحق هي القاعدة الأكثر شمولاً. إن المسلم إذا توجه بأي ضرب من العبادة لغير الله تعالى حتى لو كان هذا المعبود مع الله هو الرسول ذاته، فإن دعوى هذا المسلم أنه مسلم دعوى باطلة؛ لأن في عبادته هذه خروجاً على قاعدة هذه الرسالة وعلى جوهر دعوة هذا الرسول، وهو أفراد الله بالعبادة. وهذه القاعدة الإيمانية ذاتها منطقية على من تسمى يهودياً أو تسمى مسيحياً؛ فمسألة الاعتقاد بأن الله وحده هو المستحق للعبادة لا يتوجه بها الإنسان إلى ما سواه أو إلى من سواه هي قاعدة الدين الحق. وإذا تدرع من ينتمي إلى اليهودية أو إلى المسيحية بذريعة يبرر بها عبادته لغير الله مع الله لزم بمنطق الدين الحق واعتبار أصوله سد باب هذه الذرائع حفاظاً على جوهر دين الله وإبعاده لهذا الدين عن كل لبس أو تلبس وإبقاء على وحدته وتماسك بنائه. وبهذا الاعتبار، فإن أقطاب الكنائس بعد أحبار اليهود، قد تجاوزوا في حق الله وفي حق دين الله الحق حين ادعوا علاقة بنوة بين الله تعالى وبين بعض البشر مثل عزير أو مثل نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، ثم اتخذ هؤلاء وأولئك هذه الدعوى أو هذا الوهم ذريعة للتوجه إلى غير الله بالعبادة. وكان هذا مدخلاً واسعاً إلى ما يمكن اعتباره الشرك المتخفي وراء مصطلح التوحيد أو الكفر الموضوع في قالب الإيمان، وتلك إساءة إلى دين الله الحق وإلى الحق المطلق وإلى أنبياء الله وإلى دعواتهم. وهي خطيئة الخطايا التي لا خلاص منها بدون الرجوع عن هذه الدعوى.

10- إذا أدرجنا هذه الإشكالية أو هذه المعضلة الكنسية في سياق الخطاب الديني المعاصر؛ فإن هذا الخطاب يلزم أن يتجاوز تجريداته وأن يتجاوب مع هذه التغيرات الراهنة على كل المستويات، وأن يتحرر من نبرات قد علفت به عن الصراع الديني. والدين الحق دعوته تقوم على التسامح وعلى تحديد المسالك العملية لإقرار العدل بين البشر. والقراء الذين لا يعرفون هذه الأبعاد من مضامين دين الله الحق، الدعوة موجهة إليهم ليراجعوا نصوصاً بعينها من كتاب الله القرآن الكريم، ولكن بتدبر واتقاء وصدق وحذر من خطأ التراجم في نقل المعاني. وتفرد بالدعوة إلى تجربة شخصية جديدة في قراءة الخطاب الديني وإلى إعادة النظر في الطريقة التي يتم على أساسها اتخاذ موقف مصيري مبني على اختيار عقلائي حر في الموازنة بين الإلحاد والتدين، وماذا يترتب على اختيار هذا الاتجاه أو ذاك. فإذا ترجحت لديك أيها الفتى أو أيتها الفتاة أن كفة التدين هي الراجحة لتجاوبها مع الفطرة، فليتحرك كل منكما من التقليد ولیمحص الدين الذي يختار: يفحصه تاريخاً ويفحصه كذلك نصوصاً وأصولاً وصيغ تعامل مع واقع الإنسان بتطورات حياته المتلاحقة، وليفحص هذا الدين كذلك في تجاوبه مع الكون وفي التقاء مضامينه مع ما وصل إليه العلم الحديث من الحقائق. إن من البين أنه لا صحة لدين يناقض العقل أو يتناقض مع ما أثبت العلم من حقائق عن الكون والحياة والإنسان، والإشارة هنا إلى ما ثبت من حقائق العلم لا إلى ما ظهر من نظريات تتأرجح بين الإثبات والبطلان.

11- الدعوة هنا متوجهة إلى كل الشباب على تعدد انتماءاتهم الدينية والثقافية والفكرية أن يجمعوا على أمر لا أحسب أنهم يختلفون عليه، وهو أن يحترموا عقولهم، وأن يعطوها حقها في النظر فيما هو مسلم لديهم من دين أو إلحاد: انتماء شكليا أو اعتقادا راسخا مرجعه التقليد. إن التقليد في أي شيء إنما هو تنازل عن عقل الإنسان وعن إنسانيته وعن كرامته. أما التقليد في أمر الدين والاعتقاد قبولاً أو رفضاً، فإنه تكأة العاجز، والعجز مناقض لحيوية العقل لدى الشباب.

12- في هذه الدعوة إلى المراجعة نخص بالحديث والحوار المفتوح فئات بعينها من الشباب في مجتمعات تتنوع أنظمتها الدينية والثقافية:

أنت أيها الفتى الملحد، وكذلك أنت أيها الفتاة الناشئة في أسرة ملحدة في بيئة ينتشر فيها الإلحاد، هل تأذنان لي بحوار مفتوح معكما في بضع كلمات؟ حسنا لكما كل الشكر.

إن الملحد لا يبصر ولا يضع اعتباراً في هذا الوجود إلا لما يحقق رغباته ويشبع شهواته. وهو يعلم يقينا أن هذه المآرب لا تحقق إنسانيته؛ إذ معه فيها يشترك غير الإنسان... ألست ترى أيها الفتى الملحد كما أرى أنك غير جدير بأن تتجاوز هذا الأفق المادي المحدود إلى آفاق أبعد تجد فيها ذاتك وتحقق فيها خصوصيتك من حيث إنك إنسان؟ قد يجدر بك أن تخصص حيزاً من وقتك ليلاً ونهاراً لتعيد النظر في اعتمادك رؤية واحدة للوجود والكون والحياة. وهي رؤية أدنى ما يقال عنها أنها رؤية أحادية الزاوية.

أنت مادي ملحد، لكنك بلا ريب فتى عصري متحضر تواكب العلم في أحدث تطوراته وأدق تقنياته حتى الآن. ألا ترى أنك كما الشباب غيرك معني بأن تتنوع اختياراتك على شبكة المعلومات؟ إن للإلحاد موقعا على هذه الشبكة، كذلك الدين له مواقع. ولعل عقلك يدعوك على المزاجية بين هذه المواقع وتلك. وقد ترى بعد هذه المزاجية أن تبدأ حواراً مع شبان جادين في الحوار حول هذه القضية وأن تكون تصورا صحيحا بطريقة عقلانية في ضوء وجهات نظر متعارضة من مواقع متعددة على هذه الشبكة.

إذا تفضلت وسمحت لي بأن أتوجه إليك بدعوة مؤداها القيام بتجربة شخصية تقوم بها أنت من خلال رصدك ومتابعتك لمواقع على شبكة المعلومات مفتاحها المشترك هو القرآن.

وأنت أيها الفتى وأنت أيها الفتاة ممن شب فوجد نفسه خاضعا بصرامة إلى أسرة ذات تقاليد دينية تغلب عليها الرمزية والغموض، ومعتقدات لا أصل لها من حق ولا نصيب لها من عقل، هل يمكنكما أن تخلصا عقليكما من هذا التقليد وأن تفككا هذا الأسر وهذه القيود؟ وأن ترفعا عن كاهليكما هذا النقل التاريخي الذي تنوان به؟ وأن تتوجها بفكر عقلاني إلى مراجعة موضوعية لهذا التراث الذي وصل إليكما بالوراثة، والذي شاع في محيطكما أنه الدين؟ هل تقبلان هذا الوهم الذي ينسب الظلم لله فيجعله يكيل بين خلقه بمكيالين على أساس عنصري، فيجعل جنسا أحط من جنس وشعبا فوق كل الشعوب، وينسب إلى أنبياء الله من الفواحش ما لا تقدمان عليه في هذا العصر، وإذا أقدم أحدكما عليه يشعر بالخجل من نفسه ومن الناس حوله؟ إنما أقدر أن لكل منكما عقلا راجحا وفكرا ناضجا أو هو في طريقه إلى النضج، وأقدر كذلك أن لكما ولكل من في وضعكما شخصية وذاتية وحرية اختيار في كل شيء؛ وبكل هذه الاعتبارات فأنتما ومن على شاكلتكما معنيون بأن تراجعوا مسلمات موروثاتكم الاعتقادية بصورة جادة متأنية بعد أن تخرجوا من حالة الجمود وتناؤا بأنفسكم عن مرض التقليد. فإذا تحققت هذا الموقف العقلاني بفكر موضوعي رصين صرتم معنيين بإنشاء علاقة جديدة بالدين ليس من دخل فيها لغير العقل والإرادات، وبربط اتصال مع جملة من الأنظمة الدينية للتعرف على أصول الاعتقاد فيها، وعلى عقلانيتها أو أسطوريتها ومدى وثاق مرجعيتها. كل هذه المعارف متاحة الآن من خلال تقنيات شبكة المعلومات. هذا الاتصال يمثل الخطوة الأولى إلى الاتجاه الصحيح نحو تمكين علاقة المرء بالدين بعد أن يوقفه

على الدين الصحيح من بين هذا الركام من الأديان والمعتقدات؛ وإذا تفضلت مشكورا أيها الفتى - أو أيتها الفتاة - وسمحت لي باقتراح متواضع، فأني أقترح عليك أن تبدأ رحلتك على طريق البحث عن الحقيقة في أمر الدين برصد ثلاث دوائر تخصص قدرا من وقتك لمراجعة أهم المواقع داخل هذه الدوائر الثلاث : القرآن، والكنيسة، واليهودية، وإني واثق بأن عقلك وحسك الفطري سوف يوديان بك إلى الدائرة التي فيها الحق والأمان والإيمان.

أعد زوار هذا الموقع بمتابعة الحديث حول الدين والوحي والعقل والإرادة والتقليد والمرجعيات والمراجعات...فإلى الحلقة الثانية من الحوار المتواصل المفتوح بإذن الله تعالى.